

مَسْرُورَاتُ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ

الدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ » القاهرة

فيما اشتغل به على المدى الطويل من دراسة البيان القرآني ، أدركت أننا سنظل محجوبين من أسرار لغتنا ، إذا لم نعد فنجتليها في القرآن الكريم ، معجزة النبي العربي ، وكتاب العربية الأكبر .

وذكرت أننا مضينا على أن نختار لابنائنا النماذج العليا من دواوين الشعراء ونثر الكتاب . وتخصي دراستهم للعربية وأدبها ، بمعزل عن هذا الكتاب المحكم المبين ، الذي يجلو ذوتها الأصل المرهف ، في ذروة نغائه وأعجاز بيانه .

وإذ أخضع في مهمل لبیان القرآن ودلالات الفاظه ، للمنهج الدقيق الذي تلعبته من « استاذنا أمين الخولي » في استقراء الاستعمال القرآني لكل لفظ أو عبارة ، وتدبر سياقاتها الخاص في الآية والسورة ، والسباق العام في الكتاب كله ، بدأ لي بعد طول التدبر والتأمل ، أنه حيثما يحشد المسرون مدة الفاظ في تفسير لفظ قرآني ، يبييني أن أضغ لفظا منها في موضع اللفظ الذي نزل به الكتاب المحكم ، دون أن يضيغ سر الكلمة .

وما من هرف تألوله زائدا أو قدره محذوفا ، يمكن أن تقوم العبارة على التاويل بزيادته أو حذفه .

ولفتني هذا إلى أسرار للعربية احتجبت منا ، لطول ما اختلطت الدلالة القرآنية بالدلالات المجبية ، ولطول ما احتكمت قواعد الصنعة الامرابية والمنطق البلاغي المدرسي ، في توجيه النص الأعلى الذي ينبغي أن تعرض عليه كل قواعد النحاة واللغويين والبلاغيين .

ولا يتسع المجال المحدود هنا لعرض كل ما اجتليت من هذه الأسرار التي حجبت منا ، وإنما حسبني أن أقدم منها المثل والشاهد ، في سر البيان في الحرف لا يفتني منه سواه وفي الكلمة لا يقوم مقامها غيرها من حشد الالفاظ المقول بترادفها ، وفي التعبير يتهدى كل محاولة لتاويله على غير ما جاء به في البيان المعجز :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

سر الحرف

ما من حرف في القرآن الكريم ،
تأولوه زائدا أو قدروه محذوفا أو
فسروه بحرف آخر ، إلا ويتحدى
بسرّه اللباني كل محاولة لتأويله
على غير الوجه الذي جاء به في
البيان الممجز .

*

من سر الحرف ، أتمد هنا شواهد من حروف
قرآنية ، مفردة ومركبة ، حاول المفسرون في تأويلها
أن يعدلوا بها على وجه التقدير والتأويل ، عن نظمها
الذي جاءت به في البيان الأعلى ، لكي تلبى مقتضيات
الصنعة الاعرابية أو أحكام الصنعة البلاغية .

وبقيت هذه الحروف ، تتحدى كل محاولة لتغيير
أو تقدير بحذف وزيادة .

ولناخذ مثلا ، حرف الباء في مثل قوله تعالى :
« وما ربك بغافل عما تعملون »
« لست عليهم بمسيطر »

جرى النحاة والمفسرون على القول بأن هذه
الباء زائدة في خبر « ما » و « ليس » لا يمتنون بزيادتها أنها
جاءت عبثا أو لغوا ، وإنما هي عندهم زائدة للتأكيد .

وتد جاء « ابن هشام » بهذه الباء الزائدة في
الخبر ، مع خمسة مواضع أخرى لزيادة الباء .
وأدرجها جميعا تحت حكم عام ، هو معنى التأكيد
المستفاد من الباء الزائدة (1) .

ومع قولهم أن هذه الباء الزائدة في الخبر ،
للتأكيد ، جرت الصنعة الاعرابية على تصر عملها على
الشكل لا المعنى . فهي تعمل في ظاهر لفظ الخبر
ويبقى الحكم الاعرابي على أصله ، منصوبا بفتحة
مقدرة على آخر الخبر ، منع من ظهورها اشتغال
المحل بحركة حرف الجر الزائد .

ونردد نحن هذا الحكم التقليدي جيلا بعد جيل .
ويتلقاه الطلاب جميعا تلقينا لا يملكون إلا أن يحفظوه .

دون أن نتردد في قبول القول بزيادة الباء وتد
صار من القولات البديهية التي نقولها على وجه
الضرورة والالزام .

وباستتراء ما في القرآن من خبر « ما ، وليس »
تلقنا ظاهرة مجيء هذه الباء المقول بزيادتها ، في
خبرها المفرد الصريح غير المؤول .

فخبر ليس ، تلزمه الباء في ثلاث وعشرين آية ،
ولا تتخلف إلا في ثلاث آيات نعرض لها بعد حين .

وخبر « ما » النافية تلزمه الباء أيضا ، لا تتخلف
فيها أذكر إلا في بعض آيات لها سياقتها الخاص نتدبره
بعد حين في موضعه .

وإنما يطرد استغناء الخبر عن الباء ، إذا كانت
« ما » النافية ، متلوة بالفعل كان ، فينصب الخبر به
صريحا مفردا غير مقترن بالباء ، في مثل آيات :
البقرة 16 :

« وما كانوا مهتدين »

ومعها آيتا : الانعام 144 ، يونس 45
آل عمران 67 :

« ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا »

الاعراف 7 :

« فلننقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين »
الأنفال 33

« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »
الاسراء 15 :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »
الاسراء 20 :

« وما كان عطاء ربك محظورا »
يوسف 111 :

« ما كان حديثا يفترى »
الكهف 51 :

« وما كنت متخذ المضلين عضدا »
مريم 64 :

« وما كان ربك نسيا »
الشعراء 8 :

« وما كان أكثرهم مؤمنين »

+ 67 ، 103 ، 121 ، 139 ، 158 ، 174 ،
190 .

(1) معنى اللبيب : ج 1 من 91 ، الجمالية بالقاهرة 1329 .

الشعراء 209 :
كما تحتل تأكيد النبي في بعض الآيات ، تحتل نقض
النبي في آيات أخرى .

فاننظر اذن في كل الآيات التي يقترن خبر (ما
وليس) فيها بالباء ، مقارنة بالآيات التي أستغنى
الخبر عن الباء ، لعل الاستقراء يهديننا الى خطة
بيانية من أسرار العربية .

ونبدأ بخبر « ما » غير المتلوة بالفعل كان ،
فمراها قد لزمته اطرادا في آيات :

البقرة 8 :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر
وما هم بمؤمنين » .

البقرة 74 :

« وما الله بغافل عما تعملون » —
« يعملون » معها آيات : البقرة 85 ، 140 ،
144 ، 149 ، وآل عمران 99 .

الانعام 132 :

« وما ربك بغافل عما يعملون » — تعملون
— معها آيات : هود 123 ، النمل 93 .

الانعام 107 :

« وما جملناك عليهم حيننا وما انت عليهم
بوكيل » معها : الشورى 6 .

البقرة 96 :

« يود احدكم لو يامر الف سنة وما هو
بمزهزجه من العذاب ان يامر »

البقرة 102 :

« وما هم بضارين به من احد الا باذن الله .

ق 29 :

« ما يبذل القول لدي وما انا بغلام للمبيد »
معها : فصلت 46 .

البقرة 167 :

« كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما
هم بخارجين من النار »

« ذكرى وما كنا ظالمين »

النمل 32 :

« ما كنت تاطعة امرا حتى تشهدون »

القصص 45 :

« وما كنت ثاويا في اهل مدين »

القصص 59 :

« وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها
رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا
واهلها ظالمون »

الاحزاب 40 :

« ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول
الله » .

الانعام 33 :

« الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » .

والنفي بـ « ما » في مثل هذا الاسلوب ، لا
يتجه الى الخبر مباشرة ، بل يتسلط على الجملة من
(كان) واسمها وخبرها .

*

اما حين يكون الخبر المفرد الصريح لما ، فالباء
تلزمه ، لم تتخلف الا في آية المجادلة :

« ما هن امهاتهم » وآية يوسف : « ما هذا
بشيرا » .

وامام هذه الظاهرة الاسلوبية من غلبة اقتران
خبر « ما وليس » بالباء ، لا يهون القول بانها حرف
رائد ، اذ ان مقتضى القول بزيادتها ، امكان الاستغناء
منها ، وهو ما لا يورث اليه البيان الاعلى .

والمسرون مع النحاة في أن هذه الباء زائدة
للتأكيد (1) .

وفي منهجنا ، لا تؤخذ الباء في آية من الآيات ،
بمعزل عن نظائرها في القرآن كله ، وقد نرى أن الباء

(1) الزمخشري : الكشاف ، ج 4 سورة القلم

هود 29 :

العلم 2 :

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون »

« وما أنا بطارد الذين آمنوا ، أنهم ملأوا
رهبهم » ، معها : آية الشعراء 114 .

هود 83 :

مهل تكون الباء زائدة مع اطراد مجيئها في هذه
الآيات ، لم تتخلف فيما أذكر إلا في آيتي المجادلة :
« ما هن أمهاتهم » ويوسف : « ما هذا بشرا » ؟

« وما هي من الظالمين ببيعد »

يوسف 17 :

أو هل يكفي القول بأن الباء زادت لمجرد تأكيد
النفي ؟

« وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين »

التحليل 46 :

العربية تعرف أساليب عدة للتأكيد اللفظي
والمعنوي ، كالتقسيم والتكرار ، وادوات التأكيد
المعروفة

« أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين » .

غافر 56 :

ولا بد أن يكون لكل أسلوب منها ملحظ بياني
يميزه عن سواه .

« أن في صدورهم الاكبر ما هم ببالغيه » .

ابراهيم 22 :

وقد نحس في كل الآيات التي اقترن فيها خبر
« ما » بالباء ، أن سياقتها لجحد المنفى وانكاره .
ولعله قد أفنى من الباء في آيتي (المجادلة ويوسف)
التقرير المستفاد من أسلوب القصر بعدها :

« ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي » .

يوسف 44 :

« الذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمهاتهم ان
أمهاتهم الا اللاتي ولدنهم » « وقلن حاش لله ما هذا
بشرا ان هذا الا ملك كريم »

« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بثاولي الأحلام
بالمين » .

الشعراء 138 :

« وما نحن بمعذبين »

النحل 81 :

وننظر في خبر « ليس » فإلفتنا البيان القرآني
الى خطأ ادراجها جميعا تحت حكم واحد ، يقول
بزيادة الباء للتأكيد .

« وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم » معها :
آية الروم 53 .

طاهر 22 :

وأول ما يهدي اليه الاستقراء ، هو أن نفرق بين
الجملة الخبرية منها ، والجملة الاستفهامية :

« وما أنت بمسمع من في القبور »

الصافات 163 :

فحيث يجيء النفي بـ « ليس » في الجملة
الخبرية ، في سياق جحد المنفى وانكاره ، اقتصرن
الخبر بالباء : كما في آيات :

« ما أنتم عليه بفاتنين » .

التكوير 22 ، 24 :

البقرة 267 :

« ولستم بأخديه الا ان تمضوا فيه »

آل عمران 182 :

« وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق
المبين . وما هو على الغيب بشئين »

الطسارق 14 :

« ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام
للعبيد » ومعها آيات : الأنفال 51 ،
الحج 10 ، فصلت 46

« أنه لتقول فصل . وما هو بالهزل » .

الأنعام 66 :

« قل لست عليكم بوكيل »

الأنعام 89 :

« فان يكثر بها هؤلاء لقد وكلنا بها قوما
ليسوا بها بكافرين »

الأنعام 132 :

« كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها »

المائدة 116 :

« قال سبحانه ما يكون لي ان اتول ما ليس
لي بهحق »

الحجر 20 :

« وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له
برازقين »

الاحقاب 32 :

« ومن لا يجب دامي الله فليس بمعجز في
الارض »

المجادلة 10 :

« وليس بضارهم شيئا الا باذن الله »

الغاشية 22 :

« مذكر انما انت مذكر، لست عليهم بمسيطر »

ويستغني البيان القرآني في الجمل الخبرية ،
من هذه الباء في خبر ليس ، حين يكون السياق لغير
جهد المنفي وتقرير انكاره . فآية (الرمذ) : المنفي فيها
من المشركين وما كانوا على يقين مما ينفونه ، وانه
للحق لا ريب فيه :

« ويقول الذين كفروا لست مرسلنا ، قل كفى
بالله شهيدا بيني وبينكم » 43 وآية (النساء) :
سياقها الامر بوجود التبيين والتأكد ، قبل التمجيل
بالنفي : « يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله
فتبينوا ولا تقولوا لمن اتى اليكم السلام لست مؤمنا
تبتفون مرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ،
كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان
بما تعملون خبيرا » 94 .

وآية (هود) تد اغنى عن تقرير النفي بالباء ،
التمقيب على الجملة الخبرية بما ينقلها من غيب لسم
يقع ، الى ما مضى قد تقرر وكان :

« ولئن اخبرنا عنهم العذاب الى امة معدودة ليقولن
ما يحسبه ، الا يوم يأتيهم ليس مصروما عنهم وحق بهم
ما كانوا به يستهزئون » 8 .

وهذه الآيات الثلاث محسب هي التي لم يقترن
خبر « ليس » فيها بالباء ، في الكتاب العربي المبين .

وسياقها على ما رأينا ، غير السياق في سائر
الآيات التي اقترن فيها خبر « ليس » بالباء ، فأمادت
من الانتكار البات ما لا يدع مجالا لاي شك في نفي الخبر
المقترن بها .

ولا غنى عن الباء في مثل هذا السياق ، فالخبر
بطبيعته وفي أصل وضعه اللغوي يحتمل الصدق والكذب
والباء هي التي تنقله من أصل وضعه الأول ، الى دلالة
النفي البات والانتكار العاسم .

*

فماذا عن خبر « ليس » في الجمل الاستهامية ؟
أما هذه فيطرد مجيء الخبر فيها مقترنا بالباء ، ولا
يتخلف في القرآن كله .

وما من آية منها ، يمكن أن تحتل نفيًا أو تأكيدا
لنفي ، بل ينتفض النفي بالباء فيها جميعا ويصير الى
اثبات جازم وتقرير ملزم ، بحيث تستغني عن جواب
المستفهم منه ، أو يجاب بلفظ « بلى » المختص بإيجاب
ما يستفهم عنه منفيًا .

وهذا استقراء لكل ما في القرآن من استفهام عن
جمل منفية بـ « ليس » والخبر فيها صريح مفرد .

الأنعام 30 :

« ولو ترى اذ ، وقفوا على ربهم ، قال ليس
هذا بالحق قالوا بلى وربنا »

الأنعام 53 :

« اليس الله باعلم بالشاكرين »

الاعراف : 172 :

« واشهدهم على انفسهم الست بربكم ، قالوا
بلى شهدنا »

هود 81 :

« ان موعدهم الصبح ليس الصبح بقريب »
المنكبوت 10 :

« ليس الله باعلم بما في صدور العالمين »

يس 81 :

« اوليس الذي خلق السموات والارض بقادر
على ان يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العظيم »
الزمر 26 :

« ليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذي من
دونه ومن يضل الله فما له من هاد . »

الزمر 32 :

« ليس الله بعزيز ذي انتقام »

الاحقاب 34 :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار ليس
هذا بالحق قالوا بلى وربنا »

القيامة 40 :

« ليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى »

التين 8 :

« فما يكذبك بعد بالدين ، ليس الله باحكم
الحاكمين . »

النفي في هذه الآيات جميعا قد انتقض وخرج الى
تقرير بات واثبات جازم .

هل جاء معنى التقرير والاثبات في مثل هذه
الآيات من خروج الاستفهام عن معناه الأصلي على ما
قرره علماء البلاغة ، فلا شأن للباء به ؟

معروف ان الاستفهام قد يخرج الى هذا الوجه من
التقرير ، كما قد يخرج الى وجوه أخرى كالاسترحام أو
الزجر والوعيد أو التوقع والانتظار .

وهذه الآيات خاصة بالاستفهام عن منفي بليس ،
وقد انتقض النفي فيها جميعا وخرج الى تقرير واثبات ،
لا الى أي وجه آخر من الوجوه التي يعرفها البلاغيون في
خروج الاستفهام عن أصل معناه .

ومن حيث اطراد اقتران الخبر فيها جميعا بالباء ،
تعين ان يكون لهذه الباء أثرها في تحديد الدلالة البيانية
وتعيينها على الوجه الذي لا يحتل وجها آخر .

ولو قلنا مثلا :

« الست غاملا عما حولك » أو « ليس الصبح
تريبا » .

لا يحتل الاستفهام ان يكون على معناه الأصلي ،
وان يخرج الى التوبيخ أو التنبيه أو السخرية والتهكم أو
التوقع والترقب .

ولا شيء من هذه المعاني والدلالات مما تحتله
آيات الاستفهام عن منفي بليس ، وانما هي للتقرير
والحسم والاثبات ، لا لمعنى آخر .

وهذا هو سر الباء التي قالوا انها زائدة للتأكيد ،
ثم جروا على ابطال عملها أصالة في الخبر ، وأعربوه
منصوبا بفتحة مقدرة ، منع ظهورها اشتغال المحل
بحركة حرف الجر الزائد .

كانما هو حرف مقحم يمكن الاستغناء عنه ، لكيلا
يشغل المحل بحركته فيمنع من ظهور الحركة الأصلية

*

وخلاصة ما هدى اليه الاستقراء لآياتها في البيان
القرآني :

— ان الجمل الخبرية المنفية بما ، اذا تلاها الفعل
« كان » بقي خبره منصوبا غير مقترن بالباء .
ووجه الاستغناء عن الباء ان النفي بحرف « ما »
لا يتجه الى الخبر مباشرة ، بل يتسلط على
مضمون الجملة من : كان واسمها وخبرها .

— حيثما جاء الخبر منفيا بما أو ليس في الجمل
الخبرية واتترن الخبر بالباء ، أفادت الإنكار بما
لا يدع مجالا لشك في نفي الخبر المقترن بها .

وتلزم الباء خبر (ما) و (ليس) في الجمل
الخبرية بالبيان القرآني في هذا السياق ، ولا
تتخلف الا حيث يكون المقام مستغنيا عن تقرير
النفي أو محتملا لشك في نفي الخبر .

— في الجمل الاستفهامية يطرد اقتران خبر ليس
بالباء . وبها ينتقض النفي ويخرج الاستفهام الى
اثبات جازم وتقرير بات ، لا الى أي وجه آخر
من الوجوه التي يعرفها علم البلاغة في خروج
الاستفهام عن معناه الاول في أصل اللفظة .

ولا يمكن الا يكون للباء أثرها في تحديد هذه
الدلالة البيانية وقد اطراد اقترانها بخبر (ليس) في
اسلوب الاستفهام بالبيان القرآني .

واذ كشف حرف الباء عن سره في البيان الاعلى، يبدو القول بزيادته مما يجفوه حسي العربية المرفه ، ولا يلفظ من هذه الجملوة أن لم يمتوا بها الحشو والفضول بل ادرجوها تحت الحكم العام لمعنى التاكيد بالباء الزائدة .

ولا ادري ما اذا كان يجدي أن أقول في هذه الباء غير ما قررته النحاة ، لتبقى حرفا أصليا غير زائد على اصل معناها في الإصاق (1) .

وتعمل عملها المباشر في الخبر ملصقة به غير مقول بزيادتها ، ومنها معا يستفاد خبر المنى بما وليس ؟

غير اني لا اشك في اننا لو عرضنا كل الحروف المقول بزيادتها على البيان القرآني المعجز لهدى الاستقراء والتعبر الى ملاحظة بيانية ذات بال .

وسياتي في القسم الثالث من هذا البحث مثل آخر من قولهم بزيادة حرف (لا) النامية قبل القسم في مثل قوله تعالى :

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

ونظير في حروف أخرى لم يتأولوها على تقرير زيادتها بل قد روها محذوفة ، ومضوا في تفسير الآيات على تقدير الحرف محذوما وهو مراد .

ولناخذ مثلا ، حذف حرف (لا) مقدرًا في آيات :

يوسف 85 :

« قالوا بالله تفتأ تذكر يوسف »

النساء 176 :

« بين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء

عليم »

البقرة 184 :

« وعلى الذين يطبقونه عدية طعام مساكين »

قيل فيها جميعا بحذف « لا » النافية مقدرة ، وهي مرادة

وتأويل الحذف فيها يخضع للقاعدة النحوية في حذف « لا » النافية .

والنحويون يقولون بحذفها اطرادا في جواب القسم اذا كان المنى مضارعا ، وقدموا له شواهد قليلة من الشعر .

اما القرآن الكريم فقدموا منه الآية :

« تالله تفتأ تذكر يوسف »

والذي نفهمه هو انه متى اطراد الحذف كقولهم (2) فالسياق حتما مستغن عنه ، ولا وجه اذن لتقدير الحرف ثم تأويل حذفه .

لان السياق متى اعطى المعنى المراد مستغنيا عن هذا الحرف أو غيره ، كان ذكره من الفضول أو الحشو الذي ينأى عنه الكلام البليغ فضلا عن البيان المعجز .

أما ما جوزوا فيه الحذف بغير اطراد ، فذكر « ابن هشام » في (معنى اللبيب) أنه قيل به في آية :

« بين الله لكم أن تضلوا » .

على تقدير « لتلا تضلوا » ، ثم اضاف :

« وقيل المحذوف مضاف ، أي كراهة أن تضلوا »

والآية من آيات الأحكام في التشريع القرآني للموارث ، وسياقها مستغن تماما عن تقدير حرف محذوف لم يجد النص القرآني حاجة الى ذكره ، اذ لا يخطر على بال من له أدنى الفهم بالعربية ، ايهام أن يكون المعنى : بين الله لكم لتضلوا !!

وأما بين الله لنا ما نتقي به الضلال .

ومتى اعطى السياق المعنى المراد مستغنيا عن الحرف الذي قدروه محذوما ، فذكر المحذوف الذي لا حاجة اليه ينتزه عنه البيان العالي ، اذ لو كان الحذف

(1) انتصر « سيويه » في (الكتاب) على الإصاق في معنى حرف الباء . وأحمس « ابن هشام » أربعة عشر معنى لها ، الإصاق أولها . وذكر فيه :

« وقيل هو لا يفارقتها »

انظر حرف الباء في الجزء الاول من (معنى اللبيب) .

(2) معنى اللبيب : 2 - 155 ط مصر .

ما يوقع في شبهة ابهام ، لاقتضى المقام في آية
تشريع ، وجوب ذكره دفعا لأي وهم أو لبس .

*

هؤلاء الاطوار والمدنية ، وهو على هذا الوجه غير
منسوخ « (4) » .

على ان القائلين بعدم النسخ قد ذهبوا في
تاويل الآية مذاهب شتى :

— فمنهم من صرح بانها على تقدير حذف « لا »
الفانية وهي مرادة . ونقلوا عن ابن عباس قوله :
« لا رخصة الا للذي لا يطيق الصوم » .

وعن عطاء : « هو الكبير الذي لا يستطيع بجهد
ولا بشيء من الجهد . واما من استطاع بجهد فليصمه
ولا عذر له في تركه » .

وقال « أبو حيان » في البحر .

« وجوز بعضهم ان تكون « لا » محذوفة ، فيكون
الفعل منغيا وتقديره : « وعلى الدين لا يطيقونه » حذف
لا وهي مرادة » .

ثم عتب :

« وتقدير « لا » خطأ ، لانه مكان الباس ، الا
ترى ان الذي يتبادر اليه الفهم هو ان الفعل مثبت .. »

— وآخرون من المفسرين لم يصرحوا بتقدير « لا »
محذوفة ، وان كانوا يؤولون الآية بما يعطل الحكم مع
الاثبات في « يطيقونه »

اما بتقدير : وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال
سبابهم وصحتهم ثم هجزوا عنه بالشيخوخة والمرض .
نقله الطبري وأبو حيان . واخذ به البغوي فقال :

« وعلى الذين كانوا يطيقونه في حال الشباب
نمجزوا ، والرخصة ثبتت للدين لا يطيقونه (5) » .

واما بتأويله على تقدير : من يدركه رمضان وعليه
صوم قضاء من رمضان المتقدم ، فقد كان يطبق في تلك
المدة متركه ، فعليه الفدية .

ولا اهل خلافا بين الفقهاء في جواز الفطر والمدنية
للشيخ الهرم والمريض لا يرجى برؤه فيقتضى ، لكنهم
اختلفوا في المرضع والحامل تياسا على الشيخ الهرم :

وتبقى آية البقرة في تشريع احكام الصوم :
« يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب
على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . اياما معدودات فمن
كان منكم مريضا او على سفر فعدة من ايام آخر .
وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » 184 .

والكلام فيها يطول :

الحذف فيها ليس مما يطرد على تواعد النحاة ،
وانما هو مما يجوز ولا يطرد .

وقد اختلف المفسرون في تاويلها :

— منهم من قال بان الحكم فيها منسوخ بالآية
بعدها ، والرخصة فيها للمريض والمسافر . وهذا القول
بالنسخ ، هو ما اختاره الامام « الطبري » في تفسيره
ونقله « الزمخشري » في (الكشاف) « وأبو حيان »
في (البحر المحيط) مع التصريح بان « هذا قول اكثر
المفسرين » (1) .

على ان « الامام الطبري » نقل كذلك قول من
قالوا « لم ينسخ ذلك ولا شيء منه ، وهو حكم مثبت
من لدن نزلت هذه الآية الى قيام الساعة » (2) .

واحترز « ابن كثير » مقال بعد تلخيص اتوال
المفسرين تبلى :

« نحاصل الامر ان النسخ ثابت في حقيق
الصحيح المقيم بايجاب الصيام عليه ، واما الشيخ
الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله ان يفطر ولا
قضاء عليه ، لانه ليست له حال يصير اليها يتمكن
فيها من القضاء » (3) .

وتردد « الزمخشري » بين القول بالنسخ وبين
ان يكون تاويل الآية على تقدير : وعلى من « يتكفونه
على جهد منهم وهر ، وهم الشيوخ والمجانز . وحكم

(1) أبو حيان : البحر المحيط ، 36/2

(2) تفسير الطبري : 82/2

(3) تفسير ابن كثير : 405 ط المنار .

(4) الكشاف : ج 1 سورة البقرة

(5) تفسير البغوي على هامش ابن كثير : 404 ط المنار .

فالامام الشافعي قال بالفدية تباسا على الشيخ الهرم
وأوجب عليهما القضاء مع الفدية .

اما الامام ابو حنيفة فأوجب على الحامل والمرضع
اذا خافتا على الولد القضاء لا الفدية . وأبطل القياس
على الشيخ الهرم لأنه لا يجب عليه القضاء ويجب
عليهما . قال : فلو أوجبنا الفدية مع القضاء ، كان
جمعا بين البدلين وهذا غير جائز .

وأن لنا بعد هذا كله ان نقدر الآية ونرد الى
القرآن ما تنازعوا فيه . القول بنسخ الحكم فيها
بالآية بعدها ، ان لم يوهنه قول من قرروا انه حكم
مبني من لدن نزلت الآية الى تيام الساعة .

نقد بقي ان الآيتين تشرعان لحالتين مختلفتين .
الفدية على من يطيقونه .

والقضاء على من كان مريضا أو على سفر . ولا
يكلف بالقضاء الا من أنظر لعذر عارض لميصوم بعد
زوال العذر ، عدة من ايام أخر . وفي مثل هذا لا تقبل
الفدية بديلا من القضاء .

وانما الفدية بنص الآية « على الذين يطيقونه » .
فهل هم الذين لا يطيقونه .

نستبعد ان تكون « لا » محذوفة هنا وهي
مرادة ، فالآية من آيات التشريع والاحكام ، والفعل
فيها مثبت ، وتأويلها على تقدير « لا » محذوفة ينقض
الاثبات بالنفي .

ولو كانت الفدية على من لا يطيقونه ، لأخذ حرف
النفي مكانه في نص الحكم الشرعي ولم يدع لنا مجالا
لان نختلف على تأويله بين التقيضين من اثبات ونفي .

واذ قال تعالى : « وعلى الذين يطيقونه » لما
ينبغي ان نتاويلها بالنفي فنخرجها الى تعريض حكمها
الصريح المثبت نصا .

واحسب ان الذين تناولوا الآية على تقدير حذف
« لا » صراحة أو مالا ، فهموا « يطيقونه » بمعنى
يستطيعونه . وليست الكلمتان سواء .

في لفظ الاستطاعة حس الطوامية والمواتسة
والقدرة .

اما الطاقة فهي في العربية لغة القرآن ، أقصى
الجهد ونهاية الاحتمال .

وحين يقول العربي لصاحبه :

« هل تطيق هذا »

لا يقولها الا وهو يقدر ان هذا مما لا يحتمل ولا
يطاق .

واستعمال القرآن للطاقة اسما ومعلا ، يؤذن
بانها مما يستند الجهد وطاقة الاحتمال ، كما تشهد
بذلك آياتها الثلاث وكلها من سورة البقرة .

« تناولوا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » 149

« ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » 286 وبهما
نستأنس في فهم الآية الثالثة :

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين »
فندرك أن الأمر في احتمال الصوم اذا جاوز الطاقة
وخرج الى ما لا يطاق ، سقط التكليف ، لانه لا تكليف
شرعا بما لا يطاق ، والله سبحانه لا يكلف نفسا الا
وسمها .

فالفدية تيسير على الذين يطيقونه ، بمعنى
يستغذ الصوم طاقتهم وانص احتمالهم فليسوا بحيث
يستطيعون القضاء عدة من ايام أخر .

ويصدق الحكم على المريض لا يرجى شفاؤه ،
وعلى من يتكلفونه على جهد منهم ومسر وهم الشيوخ
والمجانز ، وحكم هؤلاء الاطوار الفدية . وهو على
هذا الوجه غير منسوخ .

تيسيرا على من لا يستطيعون القضاء عدة من
ايام اخر .

وتبقى الآية على صريح نصها .

« وما الذين يطيقونه فدية طعام مسكين »

من لا يستطيعون القضاء .

دون تأويلها على حذف « لا » الزائدة وهي
مرادة .

وهذا مثل مما قالوا فيه بحذف الحرف . يمكن
ان يصدق على حروف أخر تناولوها على الصلح .
ويقوم النص في البيان القرآني مستغنيا عن تقدير
حرف محذوف ، ولاننا الى سر البيان في الاستغناء عن
كل حرف تدروه محذوف .

*

وننظر في حروف أخرى لم يقولوا فيها بتأويل
على تقدير زيادة أو حذف ، وانما أخذوا فيها بمذهب

القرآني ، ومناط التعبير فيه ، هذا الانغماس والملابسة
المحفوظة في ظرفية « في » .

وحرف « عن » في آية الماعون :

« نويل للمصلين . الذين هم من صلاتهم
ساهون » .

نستبعد قول من تأولوا السهو عن الصلاة في
الآية ، بأنه سهو في الصلاة ، فليس السهو فيها
بخطيئة ولا منكر ينذر معه الساهي بويل . وكل مؤمن
عرضة لأن يسهو في صلاته ، فينجبر هذا السهو فيها
بوجود السهو أو بالسنة والنوافل على ما هو مقرر
في باب الصلاة من أحكام الفقه .

وانما الويل للساهين عن صلاتهم الغافلين عن
كونها تيماما بين يدي الخالق ، يكبح غرور الإنسان
وينهاه عن الفحشاء والمنكر ، ويرهف ضميره ليقني الله
في اليتيم وفي المسكين مؤديا حقهما في التواصلسي
بالمرحمة .

وصلاة الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام
المسكين ، لا يمكن أن تصدر عن قلب خاشع وضمير
مؤمن . ونحن لا تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ،
فذلك هو السهو عنها ، تعود به طقوسا شكلية
ونفاقا يرائي به الناس .

*

ومن الحروف التي تأولوها في القرآن الكريم
حرف الواو في آية النساء :

« ماتكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث
 ورباع » قالوا ان الواو فيها نائبة عن « أو » وقد يكنى
ان أنقل هنا رد « ابن هشام » :

« ولا يعرف ذلك في اللغة وانما يقوله بعض
ضعفاء اللغويين والمفسرين » .

ثم نقل من كلام : أبي طاهر حمزة بن الحسين
الإصهاني ، في كتابه المسمى « بالرسالة المعربة عن
شرف الأهراب » :

« القول فيها — أي آية النساء — بأن الواو
بمعنى (أو) ، عجز عن درك الحق . فاعلموا أن

للنحاة يقول ان حروف الجر يمكن ان تتعاقب فيأخذ
احدها مكان الآخر وينوب بعضها عن بعض . وهذا
ما يتداولونه ويستدلون به كما اشار الى ذلك « ابن
هشام » في (المغنى) (1) .

وهو مذهب رفضه من وصفهم « أبو هلال
المسكري » بالحقين من أهل اللغة ، ونقل عن « ابن
درستويه » قوله :

« في جواز تعاقبها — أي الحرفين — ابطال
حقيقة اللغة ، وامساده الحكمة فيها ، والقول بخلاف
ما يوجب العقل والقياس .

« قال أبو هلال : وذلك ان الحروف اذا تعاقبت
خرجت عن حقائقها ووقع كل واحد منها بمعنى الآخر
فاوجب ذلك ان يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد.
فأبى المحققون ان يقولوا بذلك وقال به من لا يتحقق
المعاني » (2) .

وقال « ابن هشام » تعقيا على تولهم ان بعض
حروف الجر ينوب عن بعض :

« وتصحيحه بادخال (قد) على تولهم : ينوب
عن بعض ، والا تعذر استدلالهم به ، اذ كل موضع
ادموا فيه ذلك ، لا نسلم ان هذا مما وقعت فيه
النيابة ، ولو صح تولهم لجاز ان يقال : مررت في زيد
ودخلت من عمر وكتبت الى القلم . على ان البصريين
ومن تبعهم يرون في الأماكن التي ادميت فيها النيابة ،
ان الحرف باق على معناه » فان كان تجوز فهو في
الفعل ، لان التجوز في الفعل اسهل منه في الحرف (3)

ونعرض هذا الخلاف على البيان الاعلى فيأبى
ان نتاول حرفا فيه بحرف آخر .

من ذلك مثلا :

قوله تعالى : « فهم في ريبهم يترددون » التوبة .

قيل ان حرف « في » يمكن ان يتأول بحرف « من »
او « اللام » على تقدير :

« فهم من ريبهم » ، او ، لريبهم ، يترددون »
ولا يمكن ان يقوم احد الحرفين مقام الحرف في النص

(1) مغنى اللبيب 163/2 مصر .

(2) أبو هلال المسكري : الفروق اللغوية ، 13 ط الحلبي

(3) ابن هشام : مغنى اللبيب 163/2 .

اتشابهت جميعا على ان ينكحوا اما مثنى واما ثلاث واما رباع .

واظن ان هذه المثل التي تقدمتها تكفي لاجتلاء سر الحرف لا يقوم مقامه غيره . ويغنى عن مزيد تتبع هنا ، ما قد يتباح لنا من تدبر الحرف في سياقه القرآني عند الحديث عن (الظواهر الاسلوبية وسر التعبير) .

« دلالات الالفاظ وسر الكلمة »

من قديم شغلت قضية الترادف علماء العربية واختلقت مذاهبهم فيها . والبيان القرآني يجب ان يكون له القول الفصل فيما اختلفوا فيه ، حين يهدي الى سر الكلمة لا تقسوم مقامها كلمة سواها من الالفاظ المقبول بترادفها .

والامر كذلك في الفاظ القرآن ، ما من لفظ منها يمكن ان يقوم غيره مقامه ، وذلك ما ادرکه العرب النصحاء الذين نزل عليهم القرآن مصر البعث وامياهم ان ياتوا بسورة من مثله .

واحتاج هنا الى وثقة قد تطول عند مشكلة الترادف التي طال الجدل فيها والخلاف عليها .

ولا يشغلنا تعدد الالفاظ للمعنى الواحد ، اذا كان عن اختلاف لغات القبائل ، وذلك ما لا خلاف فيه فيما اعلم (2) .

وانما يشغلنا الترادف حين يقال فيه بتصدد الالفاظ للمعنى الواحد دون ان يرجع الى تصدد اللغات :

منا من يعد هذا الترادف ظاهرة فقدان الحس اللغوي وعدم قدرته على ضبط الدلالات وتحديد معاني الالفاظ ، او يراه من الفضول والتزيد الذي لا فائدة فيه (3) .

ومنا من يرى هذا الترادف ظاهرة فنى وسعة وقدرة على التصرف . وما اكثر من يباهون بهذا الثراء اللغوي ويمدونه ميزة من مزايا العربية الشريفة . وان يكن تقدم الدراسات اللغوية قد جاوز بنا مرحلة

الاعداد التي تجمع تسمان : قسم يؤتى به ليضم بعضه الى بعض وهو الاعداد الاصول نحو « ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعت ، تلك عشرة كاملة » ، « ثلاثين ليلة واتبعناها بعشر ممت ميعات ربه اربعين ليلة » .

« ولم يقولوا ثلاث وخماس ، ويريدون ثمانية ، كما قال تعالى : « ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعت » وللجهل بموقع هذه الالفاظ استعمالها « المتنبى » في غير موضع التقسيم يقال :

« احاد ام سداس في احاد ليلتنا المنوطة بالنادي »

ونستانس في مهم مثنى وثلاث ورباع باية ناطر :

« الحمد لله ناطر السموات والارض جامل الملائكة رسلا اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع » 34 وآية سبا : « تل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى » 46 .

فتدرك الملحظ البياني للواو في مثل هذا السياق ،

بما تفيد من كون الملائكة ليسوا جميعا سواء ، بل منهم اولو جناحين ومنهم اولو ثلاثة واولو اربعة . وفي آية سبا ، تضيير يكون لهم فيه ان يقوموا فرادى وان يقوموا مثنى . ولو قيل « مثنى او فرادى » للزم ان يقوموا جميعا اما مثنى واما فرادى ، ولم يكن لهم ان يقوموا في بعض الحالات مثنى ، وفي بعض الحالات فرادى .

ويهذا الاستئناس لا نرى السياق يستقيم ، بل لا نراه يصح اطلاقا ، اذا ما وضعت (او) مكان (الواو) في آية النساء . لان مقتضى التعبير بحرف (او) انه لا يسوغ لهم الا ان ينكحوا جميعا مثنى او ثلاث او رباع ، بحيث لا يختلف رجل من رجل ، وليس هذا هو الحكم المستناد من الآية في اباحة تعدد الأزواج ما بين مثنى وثلاث ورباع ثم لا يتجاوز وزنها السى المحظور وراء رباع (1) ويخطئ سر العربية من يفرق بين مثنى وثلاث ورباع ، وبين اثنتين وثلاث وأربع المعادلة لتسع ا

كما يخطئه من لا يميز بين « مثنى وثلاث ورباع » وبين : مثنى او ثلاث او رباع ، بما تفيد « او » من

(1) انظر تفسير الطبري والزمخشري : سورة النساء .

(2) السيوطي : المزهري 405 ط الحلبي

(3) ابن فارس : الصحابي في لغة 11 .

ولما سألته ابن خالويه : فأين الهند ، والصارم ،
والغضيب ، والحمام ، و... و... ؟

اجاب : هذه صفات ، وكان الشيخ لا يفرق بين
الاسماء والصفات (2) .

وصنف أبو هلال العسكري « كتابه (الفروق
اللغوية) لبيان أن اختلاف الألفاظ في لغة واحدة ،
يوجب اختلاف المعاني . فإذا جرى اسمان على معنى
من المعاني أو عين من الأعيان في لغة واحدة « فإن
كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر ، والا
لكان الثاني فضلا لا يحتاج إليه » .

قال : « وإلى هذا ذهب المحققون من العلماء ،
واليه أشار « البرد » في تفسير قوله تعالى من آية 48 ،
سورة المائدة :

« لكل جعلنا منكم شرمة ومنهاجا » فمطف
شرمة على منهاج ، لأن الشرمة لأول الشيء
والمنهاج لمعظمه ومتسعه ... ويمطف الشيء على
الشيء وأن كانا يرجعان إلى شيء واحد ، إذا كان
في أحدهما خلاف للآخر ، فأما إذا أريد بالثاني ما
أريد بالأول فهو خطأ .

قال أبو هلال : « والذي تاله « البرد » هاهنا
في المطف ، يدل على أن جميع ما جاء في القرآن ومن
العرب من لفظين جاريتين مجرى ما ذكرنا ... معطوف
أحدهما على الآخر ، فأنما جاز هذا ليهما لما بينهما من
الفرق في المعنى . ولولا ذلك لم يجز مطف زيد على أبي
عبد الله ، إذا كان هو هو (3) .

وإلى هذا ذهب « ثعلب » ونقل قول « ابن
الامرأبي » : « وكل حرمين أوتمتهما العرب على معنى
واحد ، في كل منهما معنى ليس في صاحبه ، وربما
عرفناه فأخبرنا به ، وربما فمض علينا فلم نلزم العرب
جهله .

وصرح « ابن فارس » في كتابه الصحاحي :
« ومذهبنا أن كل صفة منها - أي الصفات الواقعة
على الشيء الواحد - معناها غير معنى الأخرى .
وقد خالف قوم في ذلك فزعموا أنها وإن اختلفت الفاظها
فإنها ترجع إلى معنى واحد »

المفاضلة الساذجة بين اللغة العربية وغيرها من
اللغات ، ووجهنا إلى البحث في خصائص العربية
منتفعين بما قدمت البحوث العلمية الحديثة في اللغويات
والمصوتيات ، فلم تعد كثرة الألفاظ الدالة على المعنى
الواحد مدعاة فخر ومباهاة ، وإنما أصبحت قضية
تلتهمس حلا .

وحين ننظر فيما وصل إلينا من كتب اللغوية
ومعاجمها ، نراها تسلك مسلكين مختلفين متباعين:

منها ما يترر وجود الترادف فيحشد للمعنى
أبواب اللفظ ذات عدد ، وهذا هو مسلك « أبي
سحل الأمراي » (في القرن الثاني هـ) في كتابه (النوادر)
« وابن السكيت » (ق 3 هـ) في (الألفاظ) .
وللفيروزآبادي صاحب (التاموس) كتاب في
الترادفات أسماه (الروض المسلوف فيما له اسمان
إلى اللف) .

وكتاب آخر في أسماء العسل جمع فيها ثمانين
اسما .

ونقل « ابن فارس » قول من سمع « ابن
خالويه » يقول :

« جمعت للأسد خمسمائة اسم ، وللحبة مائتين »

كما نقل خبر « الأصمعي » حين سألته « الرشيد »
في شعر غريب ففسره ، فقال الرشيد : يا أصمعي ،
إن الغريب عندك لغبر غريب .

مقال : يا أمير المؤمنين : إلا أكون كذلك وقد
حفظت للحجر سبعين اسما ؟ (1) .

ومن قالوا بالترادف : الفراء ، وتطرب ،
والفخر الرازي ، والتاج السبكي . ويوشك أن يكون
هذا هو مذهب « جلال الدين السيوطي » .

وانكره علماء آخرون انكارا باتا ، إلا ما كان منه
في لغات عدة . منهم « أبو علي الفارسي » الذي سمع
« ابن خالويه » يقول في مجلس سيف الدولة بطلب :
أحفظ للسيف خمسين اسما .

فتبسّم أبو علي وقال : ما أحفظ له إلا اسما
واحدا هو السيف .

- (1) السيوطي : المزهري في علوم اللغة 405 حلبى بالقاهرة
- (2) ابن فارس : الصحاحي في لغة اللغة 15 السلفية بالقاهرة
- (3) أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية ، ص 12

ونبه « الجاحظ » في أكثر من موضع في كتبه ورسائله إلى بطلان الترادف ، إلا أن يكون اختلاف لغات (1) .

*

وظلت القضية فيما أهدم معلقة لم يستقر فيها أصحاب العربية على رأي حاسم ، وإن كان مذهب القول بالترادف هو الذي غلب وراج في العصور المتأخرة . ويقول به اليوم عدد من أصحاب التخصص في لغة اللغة وعلم الاجتماع (2) .

والى ماض قريب ، كانت قضية الترادف من بين ما شغل به المجمع اللغوي في القاهرة . وقد اقترح أحد السادة المجمعين أن نخفف من عبء المترادفات فنصنف بعضها للألفاظ العربية يستبعد ما زاد في المعنى الواحد من لفظ واحد يختاره المجمعيون من معاجم العربية (3)

*

والقرآن الكريم كتاب العربية الأكبر ، ومن الحق ألا نأخذ في هذه القضية برأي دون عرضها على الكتاب العربي المبين « .

ولقد شهد التتبع الاستقرائي لما درست من ألفاظ القرآن الكريم ، أنه ينفي الترادف ، إذ يستعمل اللفظ بدلالة محددة لا يمكن أن يؤديها لفظ سواه ، في المعنى الذي تقدم له المعاجم وكتب التفسير عددا من الألفاظ قل أو أكثر .

وهذه بعض أمثلة تجلو موقف البيان الأعلى من قضية الترادف التي اختلفوا فيها :

الحلم والرؤيا :

تفسر المعاجم أحد اللغتين بالآخر .

ونستقرىء مواضع ورودهما في القرآن ، ونتدبر سياقاتها فلا يترادفان :

استعمل القرآن الأحلام ثلاث مرات : يعطى سياقاتها جميعا أنها الأضغاث المشوشة والهواجس المختلطة . وتأتي في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع ، دلالة على الخلط والتشوش ، لا تمييز فيه .

يقول تعالى على لسان المشركين :

« بل قالوا أضغاث أحلام بل انتراء بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » الانبياء : 5 .

وعلى لسان الملا من قوم العزيز :

« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » يوسف : 44 .

أما الرؤيا فجاءت في القرآن سبع مرات ، كلها في الرؤيا الصادقة . وهو لا يستعملها إلا بصيغة المفرد ، دلالة على التميز والوضوح ، وجلاء المرئي وصفاء الرؤيا .

ومن بين المرات السبع ، جاءت الرؤيا خمس مرات للأنبياء ، فهي من الإلهام القريب من الوحي :

رؤيا إبراهيم عليه السلام في آية الصلوات :

« وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين » 109 .

ورؤيا يوسف إذ يقول له أبوه :

« يا بني لا تصعب رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للإنسان عدو مبين » 50 .

وتابع سياقاتها في السورة فتراها قد صدقت وتحقتت :

« ورفع أبويه على المرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا » 60 .

ورؤيا المصطفى عليه الصلاة والسلام في الإسراء :

« وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا تمثية للناس » 60 . ورؤياه في الفتح :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم

(1) انظر مثلا : الحيوان : 56/4 ، 200/7 .

(2) منهم الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (دلالات الألفاظ) والدكتور علي عبد الواحد في مقال نشره عن مزايا لغتنا العربية ومضائلها وشرمها ، سنة 1963 .

(3) المجلد الثامن ، من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ومتصرين لا تخافون ، فاعلم ما لم تعلموا فجعل من
دون ذلك فتحا قريبا « 27 .

فهذه خمس مرات من استعمال القرآن للرؤيا
للأنبياء . والمرتان الأخيران في رؤيا العزيز ، وقصدت
صدقت . وفي آيتها عبر عنها القرآن على لسان الملك
بالرؤيا لوضوحها في منامه وجلالها وصدق الهامها ،
وان بدت للملأ من تومه هواجس أو هام واضغاث
أحلام .

« وقال الملك اني ارى سبع بقرات سمان يأكلهن
سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات
يا أيها الملأ أفقوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون.
قالوا اضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين»
سورة يوسف 43 — 44 .

وتمضي القصة في سياقتها القرآني ، فاذا هي
رؤيا صادقة وليست كما بدت للملأ من توم الملك
اضغاث أحلام .

✱

آنس وأبصر :

في المعاجم : آنس الشيء أبصره ، والصوت
سعه ، واستانس استاذن .

فهل نقول في « آنس نارا » أبصرها ، أو نظرها ،
أو اشبه ذلك من الالفاظ التي يحتمل ان تتعاقب على
هذا المعنى ؟

نستقرئ استعمال القرآني فيعطينا حس
العربية المرهف لا نقول : آنست في الشيء تبصره أو
تسمعه دون ان يؤنس .

فاذا قال العربي : آنست ، فقد رأى أو سمع
ما يؤنسه . والقرآن قد استعمل الفعل «آنس» خمس
مرات ، منها أربع في النار التي رآها موسى
عليه السلام حين سار بأهله في البرية فانس إليها .
وهذه آياتها :

طسه 10 :

« اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا اني آنست
نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار
هدى » .

النبل 7 :

« اذ قال موسى لأهله اني آنست نارا سأتيكم
منها بخبر أو آتيكم بشهاب تبس لعلكم
تصطلون » .

القصص 29 :

« فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من
جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا اني آنست
نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جدوة من النار
لعلكم تصطلون » .

والمرة الخامسة في آية النساء :

« وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فآنس
آنستم منهم رشدا فادعوا اليهم أموالهم » .

ليس اليناس هنا مجرد ابصار لظواهر الرشد
المادية الحسية، ولكنه الطمأنينة المؤنسة ، بعد الإبتلاء
والامتحان ، الى أنهم قد رشدوا حقا .

وجاءت من المادة في القرآن صيغة الفعل المضارع
من الاستئناس في آية النور :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم
حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » 27 .

والاستئناس فيها ليس مجرد استئذان ، وإنما
هو حس اليناس لأهل البيت ممن يدخل عليهم . ولا
يسوغ في ذوق العربية أن يقال مثلا : استأنسس
الشرطي . أو جابي الضرائب أو الدائن ، وإنما هو
الاستئذان ليس فيه حس ايناس .

كما لا يسوغ استعمال « آنس » في رؤية عدو ،
أو سماع هزيم رعد أو زئير وحش .

✱

الآنس والآنسان (1) :

وحس الآنس نقيض الوحشة ، هو الملحظ العام
المشترك في الدلالة لكل صيغ المادة .

ومنها الآنس والآنسان :

يلتقيان في الملحظ العام لدلالة مادتهما المشتركة
« ان س » على نقيض التوحش .

(1) تقدمت الاستقراء الكامل لاياتها في كتابي « مقال في الإنسان » « دراسة قرآنية » المعارف 1969 .

لكنهما لا يترادفان ، بل ينفرد لفظ الانسان بلحظ خاص من الدلالة يميزه عن الآخر .

لفظ الانس يأتي في القرآن دائما مع الجن على وجه التقابل يطرد ذلك في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ تسيما للجن ، وعددها ثمانى عشرة آية .

ولحظ الانسية فيه ، بما تعنى من تقيسض التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلته بالجن في دلالتها املا على الخفاء الذي هو من ظواهر التوحش .

وبهذه الانسية يتميز جنسنا من اجناس اخرى خفية مجهولة غير مالوفة لنا ، ولا هي تخضع لنواميس حياتنا .

وأما الانسان فليس مناط انسانيته فيها نستقرىء من آيات البيان المعجز ، انه انس محسب ، وانما الانسانية فيه ارتقاء الى الدرجة التي تؤهله لاحتمال تبعات التكليف وامانة الانسان ، وما يلابس ذلك من تمرض للابتلاء بالخير والشر (1) .

وقد ورد لفظ « الانسان » في القرآن الكريم : في خمسة وستين موضعا نتدبر سياقاتها جريما تهدينا الى الدلالة المميزة للانسانية .

هو في جنسه العام انس :

« خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج من نار » آية 14 سورة الرحمن .

« ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » .

آية 24 سورة الحجر .

لكنه مع انسيته يختص بالقراءة والعلم (الملق) والبيان (الرحمن) والكسب والتكليف (الانسان) ، النجم 39 ، القيامة 14 ، الاسراء 17 . والجندل (الكهف 54) .

ويحتل الوصية (لقمان 14 ، المنكوت 8) .

وهيوم المكابدة وانتحام العقبة (البلد 4) .

ويحمل الامانة التي ابت السموات والارض والجبال ان يحملنها واشفتن منها (الاحزاب 72) .

وهو الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية الفرقان 29 ، ق 16 ، الحشر 16 ، الانسان 2 ، 4 ، النجر 15) .

ويزدهيه الفرور فيطفي ويستكبر ، ويفضله وهم الاستغناء من خالقه (الملق 6) وما اكثر ما يذكر القرآن الانسان بضعفه وهو انه كبحا لجماح فروره تبيلا يتجاوز قدره فيطفي ! وهو مظنة ان يتمادى به الطفيان والفرور الى حد الكفر بخالقه والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبین (النحل 4 ، مريم 67 : الانفطار 6 ، فصلت 49 ، الزخرف 15 ، عبس 17 ، العاديات 6) .

*

النعمة والنعيم :

وكذلك يلتقي لفظا « النعمة والنعيم » في الدلالة العامة لمادتهما الواحدة المشتركة ، ثم ينفرد كل منهما في البيان القرآني بلحظ خاص يميزه عن الآخر فلا يترادفان .

والمعاجم اللغوية لا تكاد تفرق بين الصيغتين ، والمسرون يؤولون النعيم بكل ما تحتله الدلالة المعجبية للمادة .

ونستقرىء الصيغتين في القرآن كله ، فنراه يفرق بينهما تفرقة واضحة :

كل نعمة في القرآن انما هي لنعم الدنيا على اختلاف انواعها . يطرد ذلك ولا يتخلف في مواضع استعمالها ، مفردا وجمعا ، في القرآن وعددها ثلاثة وخمسون موضعا .

أما صيغة النعيم فتختص بنعيم الآخرة . يطرد ذلك أيضا ولا يتخلف في مواضع استعمال القرآن لها وعددها ستة عشر موضعا .

منها خمسة عشر موضعا لا يحتل صريح سياقاتها أي تأويل :

التوبة 29 :

« وجنات لهم فيها نعيم مقيم » .

(1) انظر تفصيل ذلك الاستقراء في الجزء الثاني من كتابي (التفسير البياني) .

الطور 17 :

« ثم لتسالن يومئذ عن النعيم »

« ان المتقين في جنات ونعيم » .

ولا نستطيع امام اطراد تخصيص القرآن صيغة النعيم لنعيم الآخرة ، ان نفسرها بما حشدت كتب التفسير فيها من نعم الدنيا التي لا تأتي في القرآن الا بصيغة نعمة او نعماء .

الواقعة 89 :

« فأما ان كان من المقربين . فمروح وربحان وجنة نعيم »

وسر البيان فيها ان الذين الهام الكاثر في اعراض الدنيا عن التزود لآخراهم سيسألون يوم يرون الجحيم عين اليقين ، عن النعيم الحق ما هو . وعندئذ يعلمون علم اليقين حقيقة النعيم الذي اضاعوه والهام عنه التكاليف على نعم الدنيا الفانية وأعراضها الزائلة (1)

المعارج 38 :

« ابطع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم »

المطففون 22 :

« ان الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نظرة النعيم » .

النسأى والبعد :

يأتي بهما جمهرة اللغويين والمفسرين ، تأويلا لأحدهما بالآخر ، دون اشارة الى فرق بينهما .

الانسان 20 :

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا »

وفرق بينهما من انكروا الترادف . ونستقرىء مواضع الاستعمال القرآني للنسأى والبعد فلا يترادفان :

« واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا »

المائدة 65 :

« ولادخلناهم جنات النعيم »

فليس في القرآن نأى ، الا بمعنى الاغراض والصد والاشاحة ، بصريح النص والسياق في آيات .

الاسراء 83 :

يونس 9 :

« تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم » .

« واذا انعمنا على الإنسان اعرض ونأى بجانبه »

الانعام 26 :

الحجج 56 :

« الملك يومئذ لله ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم » معها آيتا : الصافات 43 ، الواقعة 12 .

« حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين ، وهم يفتنون عنه ويثابون عنه وان يهاكون الا انفسهم وما يشعرون »

لقمان 8 :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم » .

اما « البعد » فيأتي في القرآن على الحقيقة او المجاز ، في البعد المكاني او الزماني . المادي منهما والمعنوي ، كما هو واضح في آيات :

القلم 34 :

التوبة 42 :

« ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم »

« لو كان مرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعموك ولكن بعدت عليهم الشقة »

الشمراء 85 :

« واجعلني من ورثة جنة النعيم » .

سبا 19 :

« فقالوا ربنا بعد بين اسفارنا »

وتبقى آية التكاثر :

(1) اوضحت ذلك بمزيد تفصيل في تفسير سورة التكاثر بالجزء الاول من (التفسير البياني للقرآن الكريم) .

- الزخرف 28 :
« قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين »
- الانبياء 109 :
« وان ادري الاقرب ام بعيد ما توعدون »
- الفرقان 12 :
« ذا رانهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا »
- النمل 22 :
« فمكت غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ بنبا يقين »
- سبأ 52 ر 53 :
« واتى لهم التناوش من مكان بعيد ، وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيث من مكان بعيد »
- فصلت 44 :
« اولئك ينادون من مكان بعيد »
- ق 32 :
« وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد »
- آل عمران 30 :
« تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا »
- المارج 6 :
« انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »
- الانبياء 101 :
« اولئك عنها مبعدون »
- هود 83 :
« وما هي من الظالمين ببعيد »
- هود 95 :
« الا ابدا لمدين كما بعدت لمد »
- هود 14 :
« وقيل بعدا للقوم الظالمين »
مما هود 60 ، 68 المؤمنون 41 ، 44 .
- « ويبعد في المعنويات مثل شقاق بعيد (البقرة 176) ، الحج 53 ، فصلت 52) وضلال بعيد (ابراهيم 3 ، 18 النساء 6 ، 126 ، 136 ، 167 ، الحج 12 ، الشورى 18 ، سبأ 8 ، ق 27 ، الشورى 18) .
- ياتي دائما في مقابل القرب .
- على حين يخلص النأي للمعنوي المحض ، في الصد والافراش نقبض الاقبال .
- حلف ، والقسم :
- يقال بترادفهما كما نص على ذلك صاحب التاموس . وقد تانى حلف في شواهد من الشعر الجاهلي بمعنى اقسام ، في مثل قول النابغة :
- « حلفت فام اترك لنفسك ربية »
- والاعشى :
- « حلفت له بالراقصات الى منى »
- وشاس بن عبده :
- « حلفت بما ضم الحجيج الى منى »
- لكن التتبع الاستقرائي للمادتين في القرآن الكريم يمنع ترادفهما :
- جاءت مادة « حلف » في ثلاثة عشر موضعا ، كلها بغير استثناء في الحث باليمين .
- والغالب ان ياتي بالفعل مستندا الى المنافقين كآيات التوبة :
- « وسيحلفون بالله لو استظمنا لخرجنا معكم ، يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » (42)
- « ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم » (56)
- « يحلفون بالله ليرضوكم والله ورسوله احسق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين » (62)
- « يحنقون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم » (74)
- « يحلفون لكم لترضوا فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (96)
- « وليحلفن ان اردنا الا الحسنى ، والله يشهد بانهم لكاذبون » (107)
- ومعها في المنافقين كذلك آيات :
- النساء 62 ، المجادلة 14 ، 18 .
- وآيسة القلم :

« ولنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » البقرة
35 والاعراف 19 .

« فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك »
طسه 117 .

على حين يستعمل « امرأة العزيز ، وامرأة نوح ،
وامرأة لوط ، وامرأة فرعون .

وقد يبدو من السير ان يقوم احد اللفظين مقام
الآخر ، فنفس زوج آدم بامرأة آدم ، وامرأة فرعون
بزوج فرعون .

وذلك ما يباهه البيان المعجز .

وهو الذي يعطينا سر الدلالة فى الزوجية مناط
العلاقة بين آدم وزوجه فى قصة اول زوجين من
البشر . ولم تكن زوج آدم نمطا من النساء او امرأة
من اخريات ، بل كانت وحدها الزوج ، وكانت الزوجة
ولا شىء غيرها ، مناط علاقتها بآدم وسر وجودها .

وليس الامر كذلك فى امرأة العزيز وامرأة نوح
وامرأة لوط وامرأة فرعون ، وسياق الحديث منهن من
حيث هن أنماط من النساء ، وليس عن العلاقة الزوجية
بينهن وبين أزواجهن . والعبارة فى قصصهن ان كل
واحدة منهن مضرب المثل :

امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ؟

امرأة نبي وتخونه !

امرأة طاغية متجبر كافر ، تؤمن بالله .

ونستقري استعمال القرآن للفظ زوج وأزواج
فنجد هذا الملحظ فى كون العلاقة الزوجية هي التي
يوجه اليها السياق :

آيات (النساء) فى النفس الواحدة خلق منها
زوجها (الاعراف 189 ، الزمر 6 ، الروم 21 ، النحل
72) وفى الزوجين خلقهما الله من نفس واحدة ، او
من ذكر وانثى : (النساء 1 ، الاعراف 188 ، الزمر 6 ،
النحل 72 ، الروم 21 الشورى 11) ومعها : النبا 8 ،
الشعراء 166 ، والذاريات 49 ، النجم 45 ، القيامة
19 ، فاطر 11 .

وفى فلك نوح جعل فيها من كل زوجين اثنين :

المؤمنون 27 ، هود 40 .

وفى ما شرع الله من احكام الزوجية ، وما نزل
فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من توجيهات ،

« ولا تطع كل حلاف مهين ، هزاز مشاء بنميم .
مناع للخير معتد ائيم »

وجاء الفعل مرة واحدة مسندا الى الدين آمنوا ،
نوجبت عليهم كفارة الحنث باليمين :

« ذلك كفارة إيمانكم اذا حلفتكم » المائدة 89 .

* x *

اما القسم فيغلب استعماله فى الايمان الصادقة .
وجاء موصوفا بالعظمة فى آية :

« وانه لقسم لو تعلمون عظيم »

وجاء الفعل فى الشهادة ومثلها ، حيث لا يحمل
الحنث باليمين . كالشهادة حين الوصية (المائدة
106 ، 107) .

وحين يسند القسم فى القرآن الى المجرمين او
الكنار ، فانهم يقسمون عن اقتناع بصدق ما يقسمون
عليه .

السرور 55 :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير
ساعة »

الانعام 109 :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية

ليؤمنن بها »

ومعها آيات :

الاعراف 49 ، ابراهيم 44 ، المائدة 53 ، النحل
38 ، النور 53 ، فاطر 42 .

وامام هذا البيان القرآني ، لا يهون ابدا ان نفسر
القسم بالحلف ، وصنيع القرآن يلفت الى فرق دقيق
بين هذين اللفظين المقول بترادفهما .

فان لم نقل ان القسم لليمين الصادقة ، والحلف
لليمين الكاذبة ، على اطلاقهما . فلا اقل من ان يكون
بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص : فيكون القسم
لمطلق اليمين بعمامة . ويختص الحلف بالحنث فى
اليمين ، على ما اطرده استعماله فى البيان الاهلى .

* x *

زوج ، وامرأة :

وترى البيان القرآني يستعمل لفظ « زوج »
حيثما تحدث عن آدم وزوجه :

مثل آيات البقرة 230 ، 240 ، آل عمران 90 النساء
11 ، 19 الانعام 139 ، الحجر 88 ، النور 6 ، 30 ،
طه 131 ، التحريم 1 : 5 ، المجادلة 1 ، المتحنة 11 ،
الاحزاب 28 ، 37 ، 50 : 59 .

* × *

واكتفى بما قدمت من شواهد وأمثلة تؤيد ما
ذهب اليه المحققون من أهل اللغة في انكار الترادف الا
ان يجيء في لفتين : « فاما ان يجيء في لغة واحدة
فمحال ان يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن غير
المحققين من النحويين واللفويين ، وانما سمعوا العرب
تتكلم بذلك على طبامها وما في نفوسها من معانيها
المختلفة، وعلى ما جرت به عادتها وتعارفها، ولم يعرف
السامعون تلك الملل والفروق فظنوا ما ظنوه من ذلك
وتاولوا على العرب ما لا يجوز في الحكم » (1)

وقد ينبغي لي ان اعترف هنا بقصوري من لمسح
سر الدلالة لبعض الفاظ تبدو مترادفة ، فليس لي ان
اثر بالمجز وانا اتمثل بكلمة ابن الاعرابي :

« كل حرفين أو قمتها العرب على معنى واحد ،
في كل منهما معنى ليس في صاحبه ، ربما عرفناه
فاخبرنا به ، وربما فمض علينا فلم نلزم العرب
جهله » (2) .

الاساليب وسر التعبير

قد تكون عرفنا البلاغة العربية علما وثقناها
صناعة ومنطقا .

غير اننا ما نزال في اشد الحاجة الى ان نجعلها
ذوقا اصيلا وحسا مرهقا في آيات الفصاحة العليا
والبيان الممجز .

الاستفناء عن الفاعل :

واحاول فيما بقي من المجال المحدود للبحث ،
ان اقدم بعض ما هدى اليه البيان القرآني في اساليب
غاب عن كثير منا سر التعبير فيها والبيان .

(1) ابو هلال العسكري : الفروق اللغوية 12 .

(2) ابو هلال العسكري : الفروق اللغوية 65 .

من الظواهر الاسلوبية اللافتة في البيان الممجز
ظاهرة الاستفناء عن الفاعل التي توزعت في دراساتنا
وكتبتنا بين ابواب شتى متبادلة ، لا تغطي سر هذا
الاستفناء ، فانت تقرا في الصرف كيفية بناء الفعل
للمجهول وصيغ المطاوعة . وفي النحو احكام نائب
الفاعل . اما لماذا حذف الفاعل فذلك موضوع آخر
ندرسه في علم آخر هو علم المعاني التي انفصلت عن
الاعراب فعاد هذا الاعراب صنعة ، وهو في الاصل من
صميم المعنى . كما ندرس في علم البيان اسناد الفعل
الى غير فاعله على سبيل المجاز ، دون ان نحاول جمع
هذا الشتات المنتشر للظاهرة الاسلوبية لاجتلاء سرها
الذي من اجله تستغنى العربية عن الفاعل فتسند الى
غير فاعله : بالبناء للمجهول ، او بالمطاوعة ، او
بالاسناد المجازي .

— ◆ —

وقد لفتني اطراد ظاهرة الاستفناء عن الفاعل في
البيان القرآني في موقف واحد هو موقف القيامة :

اما بالبناء للمجهول في مثل آيات :

« فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة »

« وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة »

« اذا رجعت الارض رجا . وبست الجبال بسا »

« يوم ينفخ في الصور فتاتون اوجاجا »

« وفتحت السماء فكانت ابوابا . وسيمرت

الجبال فكانت سرايا »

« فاذا النجوم طمست . واذا السماء فرجت .

واذا الجبال نسفت »

« اذا الشمس كورت . واذا النجوم اكدرت .

واذا الجبال سيرت . واذا العشار عطست . واذا

الوحوش هشرت . واذا البحار سجرت . واذا النفوس

زوجت . واذا المودة سئلت . باى ذنب قتلت . واذا

الصحف نشرت . واذا السماء كسحت . واذا الجحيم

سعرت . واذا الجنة ازلقت . علمت نفس ما احضرت »

« كلا اذا دكت الارض دكا دكا »

« وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان واني له الذكرى »

« افلا يعلم اذا بعث ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور »

ومعها آيات النسخ فى الصور ، وكلها بلا استثناء مبنية للمجهول .

واما ان يستغنى عن ذكر الفاعل ، باسناد الحدث الى غير فاعله مطاوعة او مجازا كما فى آيات :

« اقتربت الساعة وانشق القمر »

« فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان »

« اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انثرت »

« اذا السماء انشقت . وادنت لربها وحقت »

« واذا الارض مدت . واقنت ما فيها وتخلت »

« يوم تشقق الارض عنهم سراعا »

« يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا »

« فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين »

« فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع

الشمس والقمر »

« واخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان مالها .

يومئذ تحدث اخبارها »

والبلاغيون يقولون فى حذف الفاعل ، انه يحذف

للكوف منه او عليه ، وللمعلم او الجهل به .

وقد مضى المفسرون على تقدير فاعل محذوف

لاحداث يوم القيامة ، هو الله سبحانه ، او ملك من

ملائكته ؛ مع وضوح العمد فى البيان القرآنى الى صرف

النظر من الفاعل والاستغناء عن ذكره . واكثر ما قالوه

فى تاويل ذلك ، ان الفاعل محذوف للمعلم به . وفى القرآن

آيات لا تحصى لم يحذف الفاعل فيها مع يقين العلم

به . فما سر ظاهرة الاستغناء عنه فى احداث القيامة ؟

يهدينا تدبر السياق الى :

ان اساليب البناء للمجهول والمطاوعة والاسناد

المجازي الى غير الفاعل ، تلتقي جميعا فى الاستغناء

عن ذكر الفاعل .

ان اطراد هذه الظاهرة فى موقف البعث

والقيامة ، ينه الى اسرار بيانية وراء ضوابط الصنعة

الاعرابية والاحكام البلاغية التى نجمت فى اجراءات

المنطق البلاغى .

بناء الفاعل للمجهول ، فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه .

والمطاوعة ، فيها بيان للطواعية التى يتم بها الحدث تلقائيا او على وجه التسخير ، وكآته ليس فى حاجة الى فاعل .

والاسناد المجازي ، يعطى المسند اليه فاعلية مؤكدة محققة ، تجعله يحل محل الفاعل الاصلي ويغني عن ذكره .



السجع ورعاية الفواصل :

مند بدأ عصر التأليف فى الدراسات القرآنية والبلاغية ، فرضت قضية الفواصل نفسها على الاجيال

الاولى من علماء العربية ، وان لم تستقل بمباحث مفردة ،

بل جاءت عارضة فى ثنايا المصنفات القرآنية المبكرة .

فابو عبيدة من القرن الثانى للهجرة ، يقف فى

كتابه (مجاز القرآن) عند الفاصلة بين حين وآخر ،

اذا لاحظ فيها عدولا عن مالوف الاستعمال اللغوي ،

موجها همه الى الاحتجاج لهذا المدول بان « المرب

تفعل ذلك فى كلامها » وهى العبارة التى تلقانا كثيرا

فى (مجاز القرآن) .

كذلك لم يعرض « الفراء » وهو من لغوي القرن

الثانى - ت سنة 207 هـ - لمسألة الفواصل عرضا

مباشرا فى كتابه (معاني القرآن) ولكنه حدد رايه فى

موقف القرآن منها تحديدا صريحا فى تفسيره اللغوي

لمعاني القرآن ، وترجيحه بين القراءات . وهناك ان

القرآن يراهي الفاصلة عمدا ليتحقق بها جمال النظم :

فيقدم او يؤخر ويؤثر لفظا على آخر فى منشاء ، او

يعدل من صيغة للكلمة الى صيغة اخرى ، رعابة

للفاصلة ، او رموس الآيات ، كما يسميها ، كالذي

تراه مثلا فى توجيهه لفواصل من سور الرحمن ،

والضحى ، والفجر .

وعلى كثرة ما عرض « القراء » للفواصل وبخاصة

فى السور المكية ، لم يذكرها باسم الفواصل وانما هي

عنده رموس آيات ، وان ثبت على مذهبه فى ان القرآن

يرعاها قصدا الى رعابة الجرس الصوتي والمشاكله

اللفظية . مع تحاشيه ذكر « السجع » .

وانكر « ابن قتيبة » مذهب « الفراء » فى هذه

الرعاية اللفظية للمقاطع ورموس الآيات .

والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تنبئه المعاني والفواصل تتبع المعاني . وهذا غير صحيح » (3) .

وحرر الموقف فقال ان التكلف كما يعرض في السجع عند تماثل الحروف ، يعرض في الفواصل عند تناسب الحروف ، والتكلف في كليهما مدموم مرفوض . اما ان ياتي التماثل والتقارب طوعا سهلا وتابعا للمعاني ، فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان . ولم يرد في القرآن الا ما هو من هذا الضرب لعنوه في الفصاحة .

ثم قال . . . « واظن ان الذي دما اصحابنا الى تسمية ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا ، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم . وهذا في التسمية قريب ، فاما الحقيقة فما ذكرناه » (4) .

وكذلك لم ير « ابن الاثير » في (المثل السائر) وجها لدم السجع على الإطلاق ونفيه عن القرآن جملة . فهناك سجع بليغ ، الفاظه حاوة حادة طنانة رنانة لا غنة ولا باردة ، والمعنى فيه تابع للفظ ، وكل فقرة من المجموعتين دالة على معنى غير الذي دلت عليه اختها » (5) .

« وأبو هلال العسكري » في فاتحة (أسرار البلاغة) يرى من السجع ما هو حسن بليغ ، اللفظ فيه استدعاه المعنى . وعنده ان مثل هذا السجع حلية في الكلام ، ويمجبه منه الرونق اللفظي الذي هو عنده من اسرار الامجاز (6) .

« وابن حمزة العلوي » في باب التسجيع من (الكتاب المرسوم بالطراز) لم يعرض للخلاف بين الاسجاع والفواصل ، ولا ناقش القائلين بالسجع في القرآن والقائلين بنفيه ؛ لكنه قرر ان التسجيع « من علوم البلاغة ، كثير التدوار عظيم الاستعمال في السنة

وحتى القرن الثالث الهجري ، كان التحجرج واضحا من القول بالسجع في القرآن . وكانما كان الحسن المؤمن ينبو بالكلمة ، لكثرة ما اطلقت من قديم على سجع الكهان .

ولكن التغطية ما لبثت ان دخلت معترك الجدل الكلامي بين الفرق الاسلامية ، فارتبطت بالامجاز بالنظم ، وبدأت تستقل بمباحث مفردة :

الإشاعة تردوا نفي السجع عن القرآن ، وآثروا لفظ الفواصل على السجع ، محاولين ان يفرقوا بينهما ، بان الفواصل يتبع اللفظ فيها المعنى فيه اللفظ (1) .

ولا يبدو لنا وجه تمييزهم بين السجع والفواصل القرآنية واضحا ولا قويا ، فيما نقل عنهم « الباقلائي » فهو يقيم الفرق أحيانا على ملاحظ شكلية من تفاوت المقاطع بين الفاصلتين طولا وقصرًا ، وهذا عنده اخلال بضوابط السجع ومقاييسه .

والمعتزلة نفوا كذلك القول بالسجع في القرآن نفيًا باتًا ، مقررين ان الفواصل بلاغة والسجع عيب . وبسط « الرماني » هذا المذهب في رسالته في امجاز القرآن ، محتجا للفواصل القرآنية بان العبارة فيها بالمعنى . وان لم يمتنع عنده ان يكون للجرس الصوتي والتلاف الإيقاع حظه من التقدير (2) .

ولكن من البلاغيين من لم يطمئنوا الى هذه التفرقة بين الفواصل والسجع ، وان أجمعوا على امجاز البيان القرآني .

منهم « ابن سنان الخفاجي » السدي قال في (سر الفصاحة) :

« واما الفواصل التي في القرآن ، فانهم سموها فواصل ولم يسموها اسجاعا . وفرقوا فقالوا ان السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يعمل المعنى عليه . والفواصل هي التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في انفسها . وقال الرماني ان الفواصل بلاغة

(1) الباقلائي : امجاز القرآن ، (في نفي السجع من القرآن) .

(2) ثلاث رسائل في امجاز القرآن : ص 97 ، ط الذخائر .

(3) الخفاجي : سر الفصاحة : 164 .

(4) الخفاجي : سر الفصاحة : 166 .

(5) ابن الاثير : المثل السائر ، ص 74 ، 97 - ط البهية بالقاهرة سنة 1312 .

(6) اسرار البلاغة : 7 .

البلغاء ، ويقع في الكلام المنشور ، وهو في مقابلة التصريح في الكلام المنظوم الموزون في الشعر » (1)

وواضح من مسنكه في الاستشهاد لكل نوع من أنواع التسجيع آيات قرآنية ، انه يذهب مع القائلين بوجود السجع في القرآن .

وعندهم ان الامر في التفرقة بين الاسجاع والفواصل ليس الا كراهة القول بالسجع في القرآن ، بعد ان شاع اطلاقه على سجع الكهان .

« وابن ابي الاصبح المصري » (585 : 654 هـ) في كتابه (بديع القرآن لا يبدو مستقرا على رأي في الموضوع ، ففي باب (ائتلاف الفاصلة) ينفي السجع عن فواصل القرآن ، وفي باب (التسجيع) يأسى بشواهد قرآنية على فنون التسجيع (2) .

وما نزال نجد جفوة تجاه لفظ السجع ، لطول ما ابتدته الصنعة اللفظية والزخرف البدعي ، في اساليب المصور المتأخرة ، بعد ان اصطنعه الكهان في العصر الجاهلي .

— ◆ —

ومن ثم نؤثر ان نمضي على تسمية مقاطع الآيات في النظم القرآني بالفواصل ، وهو ما جرى عليه اكثر المفسرين .

واراني اطلت في عرض اقوال السلف في الفواصل القرآنية والسجع ، توطئة لتدبر أسرار التفسير في هذه الظاهرة الاسلوبية من البيان المعجز .

وبعد الذي سقناه من خلافهم فيها بين اللفظ والمعنى نتدبر الفواصل القرآنية فلا نرى البيان القرآني يتعلق في أي فاصلة منها بمجرد رعاية شكلية للرواق اللفظي ، وانما تأتي فواصله جميعا لمقتضيات معنوية بيانية مع نسق الايقاع بهذه الفواصل ، وائتلاف الجرس ، على نحو تتقاصر دونه طاقة البلغاء .

وقد رأينا كيف تباعدت بهم السبل بين الطرفين المتقابلين :

واختار هنا شواهد من الفواصل التي وهم « الفراء » ومن ذهب مذهبه فحملوها على قصد المشاكلة اللفظية بين رؤوس الآيات بإيثار نسق على آخر أو المدول عن لفظ الى غيره في معناه .

ففي البيئة الكلامية ، اختلفت الفروق الاسلامية بين نفي السجع في القرآن نفيا باتسا على ما نقلنا من كلام الاشاعرة والمعتزلة .

ونختلف معهم ابتداء في القول بلفظين لمعنى واحد . وقد سبق بيان ذلك في الترادف وسر الكلمة .

وبين القول بوجوده في النظم القرآني . قال به من الشيعة « يحيى بن حمزة العلوي » وفي البيئة اللغوية والبلاغية ، تباعد الخلاف بين مذهب « الفراء » في ان السجع في القرآن مقصود لذاته ، وانه ربما عدل عن نسق الى آخر وءاثر لفظا على غيره في معناه ، تصدا الى المشاكلة واتفاق رؤوس الآيات .

ثم ننظر في هذه الفواصل :

وبين من انكروا ، كابن سنان الخفاجي وابن الاثير، ان تكون معاني الفواصل القرآنية تابعة للالفاظ .

« والضحى والليل اذا سجي . ما ودمك ربك وما قلى »

ورأينا من الاقدمين من فرقوا بين الفواصل والاسجاع ، اما بملحظ شكلي من توازن المقاطع طولا وقصرا وتمائل او آخرها او تقاربها ، وهو رأي « القاضي الباقلاني » . واما بملحظ معنوي في مجيء اللفظ تابعا للمعنى أو العكس كراي « على بن عيسى الرماني » .

قال « الفراء » ان القرآن جرى فيها على طرح الكاف من « تلاك » - ومن : فأوى فهدي ، فأفنى - لمشاكلة رؤوس الآيات .

لكن اكثر البلاغيين لم يروا فرقا بين الفواصل

وعد « الفخر الرازي » من وجوه حذف الكاف ، رعاية الفاصلة (3) .

- 1 الطراز : باب التسجيع ، ط المقتطف بالقاهرة 1914 .
- 2 بديع القرآن : ص 89 ، 108 ط نهضة مصر بالجيزة 1957 .
- 3 الرازي : التفسير الكبير ، سورة الضحى .

ومثله « النيسابوري » في تفسيره لآيات الضحى (1) .

ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الحذف لمجرد النسق اللفظي ، لما عدل من رعاية الفاصلة في الآيات بعدها :

فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر .
وأما بنعمة ربك فحدث «

وليس في السورة كلها ثناء فاصلة .

بل ليس فيها ثناء على الإطلاق .

وعلى مذهبه كانت الفواصل ترمي بمثل لفظ « فخير » - وأما بنعمة ربك فخير - لتستقيم العنقة البلاغية .

ونرى أن حذف الكاف من « وما لى » مع دلالة السياق عليها ، تقتضيه حساسية معنوية مرهفة بالغة الدقة واللفظ ، هي تحاشي خطابه تعالى حبيبه المصطفى في موقف الإناس : « وما قلاك » لما في القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض . أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك ، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الاحباب ، والفراق فيه على كره ، ومع رجاء العودة .

وحذفت كاف الخطاب في الآيات بعدها ، لان السياق بعد ذلك أغنى عنها ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنيا عن الكاف ، فذكرها من الفضول والحشو المنزه عنهما أعلى بيان .

— ◆ —

وآيات الفجر :

« ... والليل إذا يسر . هل في ذلك قسم لذي حجر . ألم ترى كيف فعل ربك بمداد . أرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . ونمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد ... »

قال « الفراء » في (معاني القرآن) أن ياء العلة حذفت من الفعل : يسر (ي) قصد المشاكلة بين رؤوس الآيات . وكذلك ذهب « ابن سنان الخفاجي » إلى أن حذفها وحذف ياء : بالواد (ي) لتماثل الفواصل

(1) على هامش تفسير الطبري . ط مصر .

ويكفي للرد عليهما وعلى كل من ذهب إلى مثل ما ذهبنا إليه ، أن نذكر أن القرآن الكريم لم يقتصر على حذف الياء هنا في مقاطع الآيات ، ليقل أنه قصد إلى مجرد رعاية الفواصل وتماثلها .

وإنما حذفت ياء الممثل الآخر المرفوع ، وواوه أيضا ، وياء المنقوص المحل بال ، في أواسط الجمل ودرج الكلام ، كالذي في آيات :

ق 41 :

« واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب »

التازعات 16 :

« إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى »

طه 12 :

« فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة »

النمل 18 :

« حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون »

السرود 53 :

« وما أنت بهماد الممي عن ضلاتهم »

هود 105 :

« يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه »

الإسراء 11 :

« ويسدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير »

البقرة 186 :

« وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي »

القمر 6 :

« فتول عنهم يوم يدع الدعاء إلى شيء نكر »

القمر 8 :

« يهتفون إلى الدعاء يقول الكافرون هذا يوم مسر »

- ولا مجال لقول في هذه الآيات وأمثالها بحذف ياء المنقوص المعرف بال ، أو آخر المضارع المرفوع الممثل بالواو والياء ، لرعاية الفواصل ومشاركة رؤوس الآيات . وهذا ما فات الذين تعجلوا بمثل هذا

القول في آيتي الفجر ونظائرهما ، محتكبين إلى قواعد اللغويين في أحكام الحذف لحرف العلة أو الأليات ، في المضارع المعتل الآخر والاسم المنقوص . حين ينبغي أن نعرض قواعدهم على ما يهتدي إليه الاستقراء لكل مواضع الحذف والأليات في الكتاب المحكم والبيان المعجز .

وآيتنا الأعلى :

« سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق نسوى »

والليل :

« الا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى »

ليست صيغة الأعلى ممدولا إليها فيها عن العلي لمجرد رعاية الفاصلة ، ولا أريد بها المفاضلة بين أعلى وعال ، على ما وهم بعضهم . وقد أشار « الفخر الرازي » إلى ما تعاق به الملاحظة في : ربه الأعلى « من اقتضاء أن يكون هناك رب آخر » (1) على ما يقضي به منطلق التفضيل وقواعده .

وذلك من عقم الحس فيهم ، يغيب عنه السر البياني في إطلاق هذه الصيغة دون قصد إلى مفاضنة أو ترتيب ، وإنما القصد إلى المضي بالملو إلى نهايته القصوى بغير حدود ولا قيود .

وهو نفس الملحظ الدلالي لصيغ : الحسني ، واليسري ، والأتقى ، والأشقى ، في سورة الليل ، للدلالة على غاية الحسن والتقوى ، وأقصى السوء والشقاء الذي لا يماثله شقاء .

ومثلها صيغة الأكرم في آية القام :

« اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم »

تناولها المفسرون على المفاضلة بين أكرم وكريم ، وساقوا وجوها لأكرمته تعالى . (2)

والاستقراء القرآني ، يشهد بأن صيغتي الأفل والفعل ، تفيدان الإطلاق إلى أقصى المدى ، بغير قيد ولا حدود .

وهذه هي دلالة الآية الكبرى في (النزاعات والنجم) وآياتنا الكبرى في (طه) والبطشة الكبرى في (الدخان) والطامة الكبرى في (النزاعات) والشار الكبرى في (الأمل) والكلمة السفلى والكلمة العليا في (التوبة)

— * —

وفي التقديم والتأخير قالوا برعاية الفاصلة في في مثل آية الليل :

« ان علينا للهدى . وان لنا الآخرة والأولى »
 عتل البيان القرآني فيها عما هو مالوف ومتبادر ، من تقديم الأولى على الآخرة . وليس يتعلق برعاية الفاصلة هو الذي اقتضى وحده تقديم الآخرة هنا على الأولى . وإنما اقتضاه المعنى في سياق البشري والوعيد ، إذ الآخرة خير وأبقى ، وعذابها أكبر وأشد ، وأخرى وأبقى .

وكذلك قدمت الآخرة على الأولى في سياق البشري للمصطفى بآية الضحى : « والآخرة خير لك من الأولى » .

كما قدمت الآخرة على الأولى في سياق الوعيد لفرعون إذ ادبر وتولى « فأخذ الله تكال الآخرة والأولى »

النفس مع القسم :

ومن الظواهر الأسلوبية اللانته في البيان القرآني مجيء القسم بعد لا النافية في مثل قوله تعالى :

« لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة »

وقد اختلف اللغويون في تأويل حرف « لا » وتوجيه القسم بعده . وجاء به « ابن هشام » في باب : لا ، الزائدة في الكلام لمجرد تقويته وتأكيده .

ولخص مختلف أقوالهم فيها :

— قيل هي نافية . ثم اختلفوا في تأويل المنفى بها :

منهم من قال أنها تنفي شيئا تقدم في سورة أخرى . أنكر المشركون البعث فقبل لهم : لا ، ليس الأمر كذلك . ثم استؤنف القسم : أقسم .

ووجه هذا التأويل مندهم أن القرآن كنه كالسورة الواحدة . ولهذا يذكر الشيء في سورة ، وجوابه في سورة أخرى ، ومما ذكروه من ذلك ، قوله تعالى :

« وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون »
 جوابه في سورة أخرى :

« ما انت بنعمة ربك بمجنون »

ورده أبو حيان بأنه لا يجوز ، لأن في ذلك حذف اسم « لا » وخبرها . وليس جوابا لسائل سأل

(1 ر 2) الفخر الرازي . التفسير الكبير ، سورة الليل . وسورة القلم .

فيحتمل ذلك ، نحو قوله : لا ، لمن قال : هل من رجل في الدار (1)

واما انها تنفي الفعل « اقسام » وذلك على ان يكون اخبارا لا انشاء ، على تقدير ان المقسم به يستحق اعظاما فوق القسم «

وقيل هي زائدة . على خلاف كذلك في فائدتها : منهم من قال انها زيدت توطئة وتمهيدا لنفس الجواب محذوفا . وتقديره في آية القيامة « لا اقسام بيوم القيامة . ولا اقسام بالنفس اللوامة » لا يتركون سدى .

ورد هذا التأويل بان الجواب مثبت في مثل قوله تعالى :

« لا اقسام بهذا البلد . وانت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الانسان في كبد » وقوله تعالى :

« فلا اقسام بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه للقرآن كريم » .

— وذهب آخرون ممن قالوا بزيادتها الى انها زيدت لمجرد التاكيد وتقوية الكلام ، كما في قوله تعالى :

« لثلا يمام اهل الكتاب الا يتقدرون على شيء من فضل الله » الحديد 29 .

ورد بانها لا تزداد لذلك في صدر الكلام ، بل يجب ان تزداد حشوا . لان زيادة الشيء تفيد اطراحه ، وكونه في اول الكلام يفيد الاعتناء به (2)

وقول ثالث : انها ليست نافية ولا زائدة ، وانما هي لام الابتداء كقول الشاعر :

« اهوذ بالله من العقراب »

اشبعت الفتحة فتولدت منها الف ، وانما هي : لاقسم . وهي قراءة الحسن لآية « فلا اقسام برب المشارق » اشبعت فتحة اللام حتى تولدت منها الف ، كقراءة هشام لآية ابراهيم : « فاجمل اثنيده من الناس

تهوى اليهم » بياء بعد الهمزة ، تولدت من اشباع كسرتها (2) .

ولما كانت لام الابتداء لا تدخل على الفعل ، قدروا دخولها في الآية على جملة من مبتدأ وخبر : فلانما اقسام . ثم حذف المبتدأ .

ورد « الزمخشري » بان اللام في هذه القراءة لا تصح ان تكون لام القسم لامرين : احدهما ان حقها ان يقرن بها النون المؤكدة ، والاخلاق بها ضعيف قبيح ، والثاني ان سياق الآية يرشد الى ان القسم بمواقع النجوم واقع ، ومقتضى جعلها جوابا لقسم محذوف ان تكون للاستقبال ، وفعل القسم يجب ان يكون للحال (3) .



وبعد هذا كله نرد الى القرآن ما تنازعوا فيه ، فنستبعد باديء ذي بدء ان تكون (لا) في آيات القسم ، ردت على كلام سبق في سورة اخرى . وهذا التأويل يبدو غريبا فيما نظرنا له من قوله تعالى : « ما انت بنعمة ربك بمجنون » ردا على ما حكى من قولهم « انك لمجنون » ووجه الفرابية فيه ان الرد سابق في النزول على ما حكى القرآن من قولهم : « انك لمجنون »

اذ كيف تكون آية من سورة القلم ، وهي ثاني سورة نزلت من القرآن ، ردا على آية نزلت بعدها في سورة الحجر ، وترتيبها في النزول الرابعة والخمسون ؟ وتأويل « لا اقسام » بانها « لا اقسام » اشبعت فتحة الالف فيها فتولدت منها الف ، يبدو من شطط التأويل تجاه اطراف مجيء « لا » في كل آيات القسم القرآني حيثما كان الفعل مسندا الى الله تعالى :

الواقعة 75 :

« فلا اقسام بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه للقرآن كريم »

الحاقة 38 :

« فلا اقسام بما تبصرون . وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم »

(1) البحر المحيط : 8 / 212 سورة الواقعة .

(2) ابن هشام مغني اللبيب 1 / 184 — وأبو حيان في البحر المحيط : ج 8 .

(3) الزمخشري : الكشاف 4 / 61 سورة الواقعة .

المعارج 40 :

« فلا أقسم برب المشارق والمغرب أنا لقادرون »

القيامة 1 :

« لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيعسب الإنسان أن لن نجعل عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه »

التكوير 15 :

« فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسس والصبح إذا تنفس . انه لقول رسول كريم »

الانشقاق 61 :

« فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا انسق . لتركن طبقا عن طبق »

البلد 9 :

« لا أقسم بهذا البلد . وانت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان في كبد »

ولم يأت فعل القسم في القرآن كله ، مسندا الى الله تعالى بغير « لا » .

كما لم تات « لا » مع القسم مسندا الى غيره تعالى .

وهذا الاطراد يبعد احتمال ان تكون « لا » هي لام الابتداء ، اشبعت فتحتها فتولدت منها الف .

كما يبعد احتمال ان تكون (لا) زائدة والمعنى : أقسم ، كما اختار أبو حيان . وقد قالوا هم أنفسهم ان زيادة الشيء تفيد اطراحه ، ولا يمكن اطراح « لا » وما من آية أسند فيها فعل القسم الى الله سبحانه وتعالى ، لم يجيء بعد « لا » .

فهل هي مزيد توطئة للنفي وتأكيد له ؟ قالوا ان ادخال لا النافية على فعل القسم جاء في كلام العرب واشعارهم كقول امرئ القيس :

فلا وابيك ابنة العاصري

لا يدمسى التوم انى امر

وقال غوبة بن سلمى :

الا نادت امامة باحتمال

لتحزننى فلا بك ما ابالى

وقال آخر :

* فلا وابى امدائها لا اخونها *

وجملوا منه قوله تعالى :

« لئلا يعلم اهل الكتاب الا بقدرتون على شيء من فضل الله » الحديد 29 .

والآية ، كما لاحظ ابن هشام ، في سياق النفي . وكذلك كل الشواهد الشعرية التي ذكروها ، سياقها النفي . وليس الامر كذلك في آيات « لا أقسم » وكلها في سياق الإثبات والتقرير .

ونفهم ان تاتي « لا » في سياق النفي فتؤكد ، اما ان تاتي لتؤكد الإثبات بالنفي فذلك ما يبدو غريبا حقا !! والقسم هو أقوى اساليب التأكيد ، ولا يمكن تكيده بنفيه ، لان النفي يقضي التأكيد ، فاذا نفيت القسم انتقض بنفيك آياه . والجمع بينهما أولى بأن يستطهما كليهما على القاعدة الاصولية في الدليلين تعارضا فتساقطا .

افلا يهدينا تدبر سياق آيات « لا أقسم » لله تعالى ، الى ان « لا » تنفي حاجته تعالى الى القسم ؟

بلى ، وانما نحتاج نحن البشر الى ان نقسم دفعا لمظنة الاتهام وازاحة للشك . ومن ثم نلمح سر العربية اذ تستعمل هذا الاسلوب حيث تنفي الحاجة الى القسم ، في مواضع الثقة واليقين .

ومن نفي الحاجة الى القسم ياتي التأكيد والتقرير ، لانه يجمل المقسم او المقسم عليه ، في غشى بالثقة واليقين عن الاتسام . والسر البياني لهذا الاسلوب يعتمد في قوة اللفت على ما يبدو بين النفي والقسم من مفارقة مثيرة لافسى الانتباه . وما نزال في مالوف استعملنا نؤكد الثقة بنفي الحاجة معها الى قسم ، فتقول لمن تثق فيه : لا تقسم او : من غير يمين . مقررنا انه موضع ثقتك فليست بحاجة الى ان يقسم لك . كما تقول لصاحبك : لا اوصيك بفلان ، تأكيدا للتوصية بنفي الحاجة اليها .

واذا اكنفى بهذا القدر مما هدى اليه البيان القرآني من اسرار لغتنا في الحرف لا يفني عنه سواء ، وفي الكلمة لا تقوم مقامها اخرى غيرها ، وفي النظم لا تعرف العربية ما يدانيه بلاغة وبيانه .

ارجو الا يظن بي أنني أجهد جهود سلطنا الصالح فيما اصلوا من علوم العربية والاسلام ، فالحق انسى

وبعد فما ازعم ، وما ينبغي لي ، انسي فيما
اجتليت واجتلي من اسرار العربية في البيان القرآني
قد شارفت افقه العالي .

ولكنها محاولة ابغني بها ثواب المسمى وشرف
الوسيلة والقريب ، بطول المكوف على خدمة القرآن
الكريم ، وجهد التدبير لاسرار بيانه المعجز .

وينفذ القول ولا تنفذ كلمات ربي :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر
قبل ان تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا . »

صدق الله العظيم

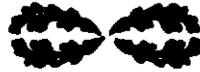
د. عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطية)

استاذة الدراسات القرآنية بجامعة القرويين

اشعر بالتصور والمخجل تجاه ما تركوا لنا من عطاء
سخي باذل ، كان لنا على مر المصور وتنايع الاجيال
ذخيرة ومددا . وما ارانا تكون خلف صدق لهم اذا لم
نحمل امانة وجودنا ، فنضيف الى تراثهم ما نتركه
للاجيال من بمدنا مطاء وميراثنا .

وقد يشق علينا ان نضيف الى ما اصلوه من علوم
العربية والاسلام جديدا ذا بال ، الا ان يفرغ
التخصصون منا في الدراسات العربية والاسلامية
لتدبر القرآن الكريم نجتلي من اسراره ودلالاته ما
يكون قد غاب عن سلفنا الصالح وهم عاكفون على
تاصيل قواعد علومهم ، بالكتاب الاكبر الذي يظل على
امتداد الزمان والمكان سر وجودنا وذخر حياتنا .



(تصويبات)

- وقمت اخطاء مطبعية في هذا البحث لستذكرها فيما يلي (1) يتحدى (بدل ويتحدى) : ص 12 سطر 4 - صلح 1 -
(2) في مثل آية (بدل في آية) : ص 13 - 20 - ص 1 - 3) يؤنس (بدل يؤمره) : نفس الصفحة - ص 26 - 4) يحسه
(بدل يحسه) : ص 15 - 5 - ص 2 - 5) لا احتمل (بدل لا يحتمل) : ص 16 - 4 - ص 2 - 6) وصير (بدل وصر) :
ص 18 - 30 - ص 1 - 7) وطى (بدل وما) : ص 19 - 25 - ص 2 - 8) ثلاث او رباع (يهدف ما بعدها وهو : بحيث لا
يختلف رجل من رجل ..) : ص 21 - 28 - ص 1 - 9) لا يتجاوزون (بدل لا يتجاوز) : ص 21 - 30 - ص 1
(10) من لا يفرل (بدل من يفرل) : ص 21 - 31 - ص 1 - 11) التطوير بين (بدل الفاقهم جميعا على) : ص 21 - 1
(12) الواحد الفلانا (بدل الواحد الفلانا) : ص 22 - 10 - ص 1 - 13) 105 (بدل 109) : ص 19 - 2 - ص 5 (بدل 50) :
ص 22 - 2 و 100 (بدل 60) : ص 26 - 2 (ص 23 - 14) حس (بدل وحس) : ص 24 - 28 - ص 2 - 15) وهوانه
(بدل وهو انه) : ص 25 - 6 - ص 2 - 16) صيلة (بدل صبيلة) : ص 25 - 26 - ص 2 - 17) وان كان كلبا في
الواقع حدثت بعد « عليه » : ص 28 - 14 - ص 1 - 18) الزوجية (بدل الزوجة) : ص 28 - 14 - ص 2 - 19) الا ان
(بدل ان) : ص 29 - 15 - ص 1 - 20) مرهنا (بدل مرهنا) : ص 29 - 25 - ص 1 - 21) الا جاء (بدل لم يجسه) :
ص 36 - 27 - ص 1 - 22) مزينة (بدل مزيد) : ص 36 - 28 - ص 1 - 23) فوية (بدل فوية) : نفس الصفحة - ص 33
- ص 1 .